كان الأسبوع الماضي واحدا من أحفل الأسابيع بالعنف وبالعمليات العسكرية من جانب قوات الاحتلال ومن جانب المقاومين الفلسطينيين الذين ردوا على التصعيد بمثله. وإثر ذلك هرع إلى المنطقة على التعاقب كل من جاك سترو وزير خارجية بريطانيا ويوشكا فيشر وزير خارجية ألمانيا، في حين مكث وزير خارجية فرنسا أوبير فيدرين بعيدا بعد تعرضه لهجمة دبلوماسية من الأمريكيين ردا على وصفه سياستهم في المنطقة والعالم بالغباء والتفرد. وعلى آثار سترو وفيشر حضر جورج تينيت رئيس السي آي إيه ليقول كلمته التي تؤكد كلماتهم وتمنحها مباركة الولايات المتحدة. وهو سوف يقول أكثر وأخطر مما قال جاك سترو وزير خارجية بريطانيا الذي حضر خصيصا ليطلب منا أن يقتل بعضنا بعضا ويسجن بعضنا بعضا وفق القوائم التي تقدم إلينا برسم التنفيذ.

ولن نتكلم بلهجة عنترية وخطابية. لأن ما مررنا به من تجارب يجعلنا مقتنعين بأن من الخير للإنسان أن يتقيد بحدود قدراته ولا يفلت لعواطفه العنان. ونحن نعرف أن ميزان القوى في غير صالحنا، على الرغم من أن ميزان العدل في جانبنا وفي صفنا.

لذلك لن نقلد لهجة الإعلام الذي أسبغ أهمية استثنائية على عملية نسف الدبابة الإسرائيلية ها أميركافا على الطريق الشرقي في غزة يوم الجمعة الماضي وعلى عملية مصرع الضابط الإسرائيلي قائد وحدة المستعربين يومها أيضاً. فليس من الصعب في قطاع غزة العثور على عشرة أو على عشرين لغما من ألغام البكلايت الروسية من مخلفات حرب حزيران يونية ١٩٦٧ ودفنها في حفرة واحدة في الأرض بانتظار أن تمر فوقها الدبابة الإسرائيلية. كما أن مصرع قائد وحدة المستعربين أثناء العملية التي قادها ضد قرية صيدا قريبا من طولكرم كان مصادفة أخرى. وربما كانت هناك فرصة مساوية لنجاة ذلك الضابط كما نجا في عشرات مرات العدوان على القرى والضواحي الفلسطينية. بل إن صواريخ قسام نفسها لم تتجاوز كونها أسلحة بدائية مصنوعة مما تيسر من إمكانيات. ولا يمكن مقارنة هذه الوسائل البسيطة بجزء من مليون من الأسلحة الهائلة التي توفرها الولايات المتحدة لإسرائيل.

ونحن أخيرا لن نبالغ في تصوراتنا حول تأثير عمليات المقاومة على مجتمع الاحتلال. فيمكن للإسرائيليين أن يتحملوا ما يتحمله غيرهم من الوجع دون أن يؤدي ذلك إلى انهيارهم.

<u>أين فوجئ الطرفان؟!</u>

لكننا في المقابل نعرف أن مجريات الأحداث الجارية، أي أفعال العنف والتخريب والتدمير التي تقوم بها القوات المسلحة والأجهزة الإسرائيلية، وردود الأفعال الفلسطينية عليها، قد فاجأت الطرفين. فالإسرائيليون المخططون والمنفذون فوجئوا بالصلابة وطول النفس وذخيرة التضحيات الموجودة لدى الفلسطينيين. والفلسطينيون بقوات أمنهم الوطني وجمهورهم المدني فوجئوا بالضراوة والمبالغة من جانب الإسرائيليين هذه المرة في استخدام أفتك الوسائل القتالية وتوسيع دائرة الاستهداف والتخريب.

ووسط طوفان الأكاذيب والحرب الإعلامية التي يشنها الإسرائيليون في الميدان العالمي الواسع علينا، لابد أن ننتبه وأن ننبه غيرنا إلى حقيقة الوقائع الجارية وحقيقة المعنى والمغزى المترتب على هذه الوقائع. لأن من الملاحظ أن بعضنا قد يقع تحت تأثير تلك الحرب الإعلامية

التي تبدأ بتصوير الوقائع على غير حقيقتها ولا تنتهي بالتزوير في تحميل المسؤوليات وتلفيق التبعات.

وإذا كان ثلث عدد الجمهرات الإسرائيلية قد عبر في إحصاءات الرأي عن رغبته في اقتلاع الفلسطينيين حاليا من فلسطين إلى خارج الحدود، فعلينا أن لا نتخيل في المقابل أننا نستطيع أن نقول إن على الإسرائيليين أن يحملوا عصاهم على عاتقهم ويرحلوا! فهذا كلام لا تؤهلنا له قدراتنا، وهو لا يفيدنا ولا يمثل الغرض المحدد لهذا الدور من أدوار الصراع.

<u>إعادة بناء الوقائع</u>

وعلينا أن نعيد بناء الوقائع منذ البداية حتى اليوم على حقيقتها وأن نطلب من الأخ عمرو موسى وضع إخواننا العرب والعالم في صورة الحقيقة بكل نصاعتها.

وجوهر هذه الحقيقة أن الفلسطينيين لم يفتتحوا بانتفاضتهم الأولى ولا الثانية ولا الثالثة حرب التحرير الوطني، كما لا يمكن اعتبار هذه الانتفاضات الثلاث التي قام بها الجمهور الفلسطيني الرازح تحت الاحتلال بمثابة استمرار لدور الثورة المسلحة التي أعلنتها فتح ومنظمة التحرير في عام ١٩٦٥. فما الانتفاضات المذكورة التي نعيش اليوم أحداث الثالثة منها، إلا ردود أفعال على أفعال احتلالية إسرائيلية لا تطاق ولا تدع إلى الصبر سبيلا.

الانتفاضة الأولى (عام ١٩٨٧) كانت رد فعل على ممارسات الاحتلال عامة، وعلى حملات مصادرات الأراضي الواسعة والاستيطان الكثيف في قطاع غزة والضفة الغربية بحيث اكتشف الجمهور الفلسطيني أن سلطات الاحتلال لا تتوقف في نهبها الأراضي الفلسطينية عند حد، وكابد الجمهور الفلسطيني الأمرين من احتكاكه بالمستوطنين الذين داهموه في عقر داره ونفثوا في وجهه سموم الأحقاد الدينية والعنصرية التي يحملها هذا النمط من تلاميذ الحاخامات والجنرالات.

والانتفاضة الثانية (عام ٢٠٠٠) التي عرفت باسم انتفاضة النفق، كانت رد فعل على تنكر سلطات الاحتلال للاتفاقات الموقعة مع السلطة الفلسطينية وعلى إمعان سلطات الاحتلال في إجراءات الحصار والضغط الاقتصادي والاستيطان القاضم الهاضم الزاحف، وقد فجرها كما هو معلوم إصرار حكومة الاحتلال على فتح نفق تحت المسجد الأقصى الذي هو أقدس مقدسات المسلمين في هذه الديار.

والانتفاضة الثالثة الجارية (عام ٢٠٠١) التي يطلق عليها اسم انتفاضة الأقصى، كانت رد فعل على تبني حكومة باراك سياسة عنف ومراوغة وتلاعب ضد التسوية والسلام، وقد فجرها باراك وشارون بتآمرهما معا على إسلامية المسجد الأقصى وبغرض وضع حجر الأساس لبناء ما يدعى بالهيكل في ساحة المسجد. وشاء الشريكان في المؤامرة أن يكون التفجير عبر مظهر صارخ هو قيام محرك الشر شارون بوزنه الثقيل وخطواته المشؤومة بمداهمة الصرح المقدس في يوم مختار هو يوم الخميس، محاطا بألوف رجال المخابرات الإسرائيلية الذين خصصهم باراك للمهمة. ثم إن المؤامرة التفجيرية عمدت إلى المصلين يوم الجمعة، فبادرتهم إلى إطلاق النار عليهم داخل المسجد قبل أن يكونوا قد أنهوا صلاتهم بعد.

وفي الأيام التالية، كما يتذكر الجميع، اتخذ الغضب الشعبي شكل المظاهرات وقذف الحجارة نحو قوات الاحتلال المتحصنة في دشمها ودباباتها. ولو لم تكن هناك خطة مبيتة للتفجير لأمكن للحكومة الإسرائيلية بسهولة أن تستبقي طابع المواجهات في إطار أعمال

الغضب الشعبي والردود التي تقوم بها الشرطة عادة. ولكن: هيهات. فالذي حدث، كما يتذكر الجميع، أن قذف الحجارة قوبل من طرف جنود الاحتلال داخل حصونهم بإطلاق النار من البنادق القناصة على العيون والصدور تارة، وبإطلاق الصواريخ على المتظاهرين وعلى منشآت الأمن ورجال الأمن الفلسطيني تارة أخرى. ولم يكن من الممكن ولا من المعقول قط أن يفسر ذلك بمجرد الحقد والعنصرية التي تربى قسم كبير من الجنود الإسرائيليين عليها، بل هي سياسة وتعليمات قيادتهم التي تنفذ بالتدريج الخطة التي أشرنا إليها، والتي بدأت بمداهمة المسجد وقتل المصلين.

خطط معقدة وردود بسيطة

ولم تتخذ الأمور شكل الرد المسلح الطفيف من جانب الفلسطينيين إلا بعد أن تعاظم عدد الضحايا الفلسطينية من قتلى ومعاقين، وبعد أن تبين ازدياد إصابات الفلسطينيين في الرأس والصدر والبطن، وكشفت الأشعة استخدام جيش الاحتلال أنواع الرصاص المتفجر ورصاص الدمدم المتفتت ضد الصبية المتظاهرين. وبمجيء شارون إلى الحكم انغلقت فرص المساجلة السياسية تماما، وأبت العنجهية اليمينية التي تمثلها وزارته إلا أن تمضي قدما في خطط الحرب والإفناء. وهكذا استدرجت الخطة الإسرائيلية المبيتة الشباب الفلسطيني إلى ساحة الحرب المسلحة بما تيسر لهم من أسلحة خفيفة أو مصنوعات بدائية.

ونتوقف هنا قليلا لنقول: إن الخطة الشارونية الباراكية قامت على أساس حساب ما في يد الفلسطينيين، وهو معروف لدى الإسرائيليين بالقلم والدفتر، وقد تولد لديهما التصور بالتالي أن قدرة الفلسطينيين على العنف لن تكون أكثر من دمل محتقن على جلد الدولة اليهودية، يجب إنضاجه، ثم عصره، ومن ثم تجفيفه، وذلك بعمل يشبه الجراحة البسيطة الوقتية.

أما الفلسطينيون، فكان احتدامهم أقوى من أن يسمح لهم برؤية ضحاياهم يتساقطون في حين يتهافت رصاص الشباب على جدران الحصون أو يرتمي قبل أن يصل المدى الذي يقتص من المعتدين.

من هنا كانت عمليات تفجير النفس التي عجز الاحتلال عجزا تاما عن أن يفهم أنه صانعها الأول، بواسطة اغتصابه حقوق الفلسطينيين وهدره دماء الفلسطينيين وتفننه في إيذاء الفلسطينيين وإهانته كرامة الفلسطينيين كلما استطاع وعلى قدر ما استطاع. ولم يكن هذا الذي يفعله الفلسطينيون بالأمر المفهوم حتى لدى عسكري أمريكي من عصر الحرب

الميكانيكية، أعني به الجنرال أنتوني زيني، الذي ربما سمع عن غارات الهاراكيري الياباني في الحرب العالمية الثانية، ولكنه ربما استطاع أن (يعقلن) تلك الظاهرة، من حيث أن فدائي الهاراكيري لم يكن بحاجة إلا لقرار لحظي بأن يقذف نفسه وطائرته نحو القطعة البحرية الأمريكية. أي أن انتصار ذلك العسكري الياباني على البارجة، على الرغم من كونه يتطلب شجاعة لم يألفها الإنسان في الدول (المتحضرة)، فيمكن التسامح مع تجاوزه الحد المفهوم من الشجاعة بالمقاييس الأمريكية بواسطة القول إن فعله لم يحتج إلا إلى ثانية واحدة من القرار والتنفيذ. أما فعل الشاب الفلسطيني فلم يستطع زيني أن يفهمه ولا أن يتسامح معه بأي شكل من الأشكال ولذلك أدانه بأقذر الكلمات. وكيف كان يمكن لزيني أن يفهم أن هناك نفوسا بشرية قادرة على التصدي لأعقد الخطط والأساليب التي تمثل الحضارة في نظره، بواسطة عمل بسيط غاية في البساطة هو التضحية بالحياة عن وعي تام وبدون تردد؟ لقد توقف عقل الرجل عن

العمل المعتاد الذي تعينه فيه الحسابات واللوغاريتمات والبرمجيات، وشعر بالإهانة البالغة لأن على وجه الكرة الأرضية من يتجاوز المقاييس الأمريكية لمعنى الشجاعة والعمليات الخاصة.

ولما كان الأمريكيون قد تعبأوا تعبئة طويلة بواسطة الهيئات الصهيونية واللوبي الصهيوني بكراهية العقيدة الإسلامية، فإن من أهون الأمور على الطرفين أن يجعلوا من الإسلام ومما دعوه الأصولية الإسلامية والتطرف والتشدد والتعصب والإرهاب الإسلامي شماعة يعلقون عليها جميع ما يكرهون في العالم بأسره فإنهم يعلقون عمليات تفجير النفس في فلسطين على تلك الشماعة فورا. وهم لن يعجزوا عن الاستمرار في المسلك ذاته حتى بعدما اقتحم ذلك النوع من العمليات أفراد الجبهة الشعبية وفتح والديمقراطية والبقية تأتي. وسوف يستمر شارون وفريقه بالمكابرة، دون أن يخطر ببالهم أبدا أن شدة تطرفهم في عدوانهم وعنصريتهم واغتصابهم لم يدع للفلسطينيين طريقا غير هذا الطريق.

طاحونة الدم

ونحن نرى اليوم أن طاحونة الدم التي أدارها شارون، والتي ظن أنها لن تطحن إلا دما ولحما وعظاما فلسطينية، تطحن فيما تطحن مستقبل وزارته الكئيبة وعهده المظلم. وذلك يبعثه إلى الجنون المطبق. وها نحن نسمعه يمضي في بحرانه وهذائه وحديثه عن حرب الاستقلال، وهي الحرب التي استولت العصابات الصهيونية فيها على معظم أجزاء فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ وطردت معظم العرب أصحاب فلسطين خارج الحدود. وشارون والجنرالات أمثاله يعيشون في الماضي. وهم لذلك لا يفهمون أن الفلسطينيين الذين نزحوا عن بلادهم في عام النكبة قبل أربع وخمسين سنة غير الفلسطينيين الذين يعيشون في فلسطين اليوم.

لقد أدت طاحونة الدم إلى تبلور ثقافة الاستشهاد عمليا في صورة أفعال تتقاضى الإسرائيليين دما بدم، تعبيرا محتوما عن إباء الضيم وانتصارا على العجز عن اقتناء وسائل القتل الحضارية التي زودت الولايات المتحدة إسرائيل بها.

والمرء لا يستطيع على ضوء هذه المعطيات الراهنة إلا أن يفكر فيما هو أصعب وأفدح ثمنا.

أهداف التحركات الاحتلالية

فقد انتقل شارون بخططه وبرامجه إلى مرحلة جديدة متقدمة، متجاهلا كل ما يراه من حوله من أمور تقول له: توقف وعد من حيث أتيت. فلا الوضع الاقتصادي المتراجع في إسرائيل، ولا الإضرابات، ولا التظاهرات، ولا كلام بوش إليه في الزيارة الأخيرة لواشنطن، ولا مباحثات بيريس مع الفلسطينيين، ولا برقيات بيلين وساريد إلى وزير الخارجية الأمريكي، ولا عرائض العصيان التي وقع عليها ضباط وجنود الاحتياط معلنين امتناعهم عن الذهاب إلى مناطق السلطة الفلسطينية، ولا حتى استقالة بعض وزراء حكومته كاف لتغيير ما في رأسه وخياله من مذابح ومن ترانسفير لجزء من الفلسطينيين على الأقل. وأمثاله يبقون متعلقين بكلمات شخصية منحلة مثل تشيني على أمل أن يلقوا من الولايات المتحدة التمويل والتدعيم الذي يجعل مشاريع الترانسفير والمذابح ممكنة.

وما يجري حاليا في المناطق الفلسطينية هو استمرار للأعمال العسكرية التي بدأها باراك ومن بعده شارون للقضاء على كيان السلطة الفلسطينية، من أجل إدخال المناطق الفلسطينية

في حالة من الفوضى الضاربة التي تؤدي إلى حمامات دم فلسطينية وإلى ما يأمله شارون من قفز بعض العملاء الذين يعيشون في خيال أجهزته السرية إلى عجلة قيادة السلطة الفلسطينية.

وفي هذه المرحلة الدقيقة أيضا، والتي تتسم بعصبية متزايدة من قبل شارون، سعيا وراء عدم فقدان قاعدته الانتخابية لصالح نتنياهو المزايد عليه عنصريا وعسكريا، يقوم شارون بعمليات حربية تحصد مزيدا من أرواح الفلسطينيين من ناحية، وتستطلع ردود الفعل الفلسطينية وفق ما يعرف في العلم العسكري بالاستطلاع بقوة مهاجمة من ناحية أخرى، كما تستطلع ردود الفعل السياسية العربية من ناحية ثالثة، وتدرب القوات الإسرائيلية يوما بعد يوم على إعادة احتلال المناطق متى حان الوقت لذلك. فقد قامت القوات الإسرائيلية مرة بعد مرة بالتوغل في المناطق في الضفة كما في القطاع.

علينا حيال هذا كله أن لا نبتلع الطعم فنقول إن لدينا كلنا أو بعضنا استراتيجية قتالية ندير بها حربنا ضد جيش الاحتلال. فالاستراتيجية الفلسطينية الوحيدة هي مقاومة عدوان الاحتلال والدفاع عما بأيدينا. وذلك ما يشترك به الشعب الفلسطيني بجميع قواه. أما (الحرب) ذات الاستراتيجية المعقولة، سواء كانت حرب عصابات أو حربا نظامية، فلن تكون أصلا ما لم تخطط لها وتشارك فيها القوى العربية الشعبية قبل الرسمية، وهذا بعيد في زماننا الحاضر، الذي تتعرض معظم البلدان العربية الشقيقة لاحتمال أن يدبر لها الأمريكيون خطة باسم مكافحة الإرهاب. ويقف كل على حدة للأسف ليدافع عن بيته الخاص.

هل رأيتم صورة الفتى في غزة الذي يقف بحجره أمام الدبابة؟ إنه من الطينة ذاتها التي جبلتها الأيام وظهر منها في صورة أخرى بنابلس سبعة أو ثمانية شبان يطاردون دبابة مشابهة.

- **هل رأيتم صورة الفتى في غزة الذي يقف بحجره أمام الدبابة؟ إنه من الطينة ذاتها التي جبلتها الأيام وظهر منها في صورة أخرى بنابلس سبعة أو ثمانية شبان يطاردون دبابة مشابهة.**

- **لم يتورع رئيس بلدية نيويورك المدعو جولياني عن رفض اليد الكريمة التي مدها إليه الأمير الوليد بن طلال لدى زيارته نيويورك مواسيا بعد الحادي عشر من أيلول، ومتبرعا لمدينة نيويورك بالملايين. فمع أن الأمير الجواد أدان الفعل وفاعليه، فإن رئيس البلدية النيويوركي لم يقبل من الأمير العربي قوله: إنه يأمل أن توازن الولايات المتحدة سياستها حيال القضية الفلسطينية. وعند ذلك انتفض جولياني قائلا: كلا! هذا غير مقبول! وكلامك جزء من المشكلة! فليت بعض الإخوة العرب يتعصبون لفلسطين قدر تعصب جولياني لإسرائيل..**